مجلة الإحياء، المجلد 24، العدد: 35، سبتمبر 2024، ص - ص: 101 - 114
الترقيم الدولي: 4350-1112 الترقيم الدولي الإلكتروني: 2406-2588

سؤال الارتفاق الكوني والبيئي من المنظور العقدي عند النجار

The question of cosmic and synpathy from the doctrinal perspective of Abd-Al-Madjid Najeer

طالبة دكتوراه فاطمة طير المشرف: د/ مهدي لخضر بن ناصر
Fatima TIR
كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية - جامعة أبو بكر بلقايد- تلمسان
مخبر الدراسات الشرعية تلمسان
fatima18tir@gmail.com

تاريخ الإرسال: 2023/01/15 تاريخ القبول: 2024/06/27

الملخص:
لقد انبرى من علماء المسلمين المعاصرين عدد ليس بالقليل لتوضيح الرؤية الإسلامية للبيئة، والسعي لإيجاد الحلول العملية لها، مع تزايد التغيرات المناخية واشتداد الأزمة البيئية؛ ولعل من أبرزهم عبد المجيد النجار الذي اعتبر مسألة الارتفاق الكوني والبيئي من المباحث العقدية المحضة، التي تعاضدت الأدلة الشرعية والتطبيقات العملية في فقه التحضر الإسلامي بتبيين العلاقة العقدية بين الإنسان وكونه، وترشيد عملية مباشرته لهذا الكون بالرفق والاستنفاع المقنن.
الكلمات المفتاحية: الارتفاق؛ الكون؛ الرفق؛ الانتفاع؛ العقيدة.

Abstract:
A great number of contemprary muslim scholars have endeavored to clarify the islamic vision of the environement and strive to find practical solution for it with the increasing environmental changes and the intensification of the environmental crisis. Perhaps the most prominent of the mis Abdal-Nadjar who cosmic and environemental sympathy one of purely doctrinal investigations which interwine the legal evidence and practical application in the juris prudence of Islamic civilization by elarifying the normal relationship between man and his being and rationalizing him to this univers with kindness and regulated utilization.
Key words: easement; univers; utilizing; kindness; fait.

مقدمة:

يشهد كوننا الكبير في السنوات الأخيرة تغيرات كثيرة، خاصة كوكب الأرض الذي تنهار بيئته يوما بعد يوم بسبب مخلفات الثورة الصناعية والتقنية، وحسّ اللامسؤولية لكثير من البشر في تعامله مع البيئة، فغدا التصّحر والجفاف يهدد الكائنات كلها، بل إن الكوكب قد ارتفعت درجات حرارته عما سبق وازداد توسع ثقب الأوزون جراء التلوث وكثرة الحرائق، وغير ذلك من الأزمات البيئية الحديثة، حتى صار كل من على هذه البسيطة يستشعر التغيرات المناخية التي تحدث في السنوات الأخيرة، وهذه المشاكل وغيرها تضر بمستقبل الأرض والكون والكائنات، والمسؤول الأول عن ذلك هو الإنسان، كما أنه هو المتضرر الأكبر من هذا، وقد بدأت بوادر هذه الأزمات في الانتشار فقد تعرضت مناطق مختلفة من العالم لجفاف

تام، وندرة رهيبة في الطعام، ما زاد في نسبة الناس الذين يعيشون تحت خط الفقر، ومن نقص نسبة الغذاء عالميا، وكل هذا يؤدي إلى أزمات اجتماعية لا حد لها، وارتفاعا في مستويات الجريمة وحتى الحروب.

والاشتغال على موضوع الاهتمام بالبيئة وارتفاق الكون صار من معضلات العالم الكبرى، بل وصارت الحكومات والمنظمات الدولية الكبرى تشتغل به أيما اشتغال، وتعقد المؤتمرات والملتقيات لإيجاد الحلول المناسبة وتطوير المشاريع الصديقة للبيئة ، وتقيم المسابقات وتمنح الجوائز الدولية لذلك، وصار اهتمام الدول بالغا بكل ما يخص تحقيق الأمن الغذائي لها، لكن لا تزال الخطوات في أولها بينما تتسارع الأزمات البيئية بشكل رهيب، لذا وجب شحذ الهمم وتركيز العمل من أجل ذلك.

ولهذا كله وغيره اهتم علماء الإسلام المعاصرين بهذا الشأن، كون المسألة البيئية وارتفاق الكون مسألة دينية بل وعقدية كذلك، وذلك استنادا لما وجّه إليه الشارع الحكيم، وما دعا إليه القرآن والسنة، ولكون الاختلالات البيئية مشكلا صار يهدّد الأرض، موطن الاستخلاف التي خلقها الله لبني آدم وسخرها لهم وأمرهم بإعمارها.

وكان من بين أبرز العلماء المعاصرين الذين اشتغلوا بذلك عبد المجيد عمر النجار، من خلال اهتمامه الشديد بقضايا البيئة ومشاكلها، وطرح حلول لها انطلاقا من المنظور العقدي الإسلامي، وقد كتب في المسألة كثيرا وحاضر فيها على منابر عديدة، مبرزا أن ارتفاق الكون والحفاظ على البيئة مبحث إسلامي عريق دعا إليه كلام ربنا وأحاديث نبينا عليه الصلاة والسلام، واعتبره من الأمور العقدية الإسلامية وليست فقط أمورا تشريعية.

إشكاليات البحث: ارتأيت أن أبرز في هذه الورقات البحثية أفكار الدكتور النجار في قضية ارتفاق الكون، محاولة الإجابة على الإشكالية الرئيسية التالية: ما هي أبرز الأفكار التي قدمها النجار في موضوع ارتفاق الكون ولماذا اعتبره من الأمور العقدية؟ وتتفرع عنه الإشكالات الثانوية الآتية: ما هو مفهوم ارتفاق الكون عند عبد المجيد النجار؟ ولماذا اعتبر المسألة البيئية مبحثا عقديا؟ وكيف يمكن الانتفاع بالكون والرفق به انطلاقا من تجديد المنظور العقدي للكون؟

منهجية البحث: أمّا المنهج المتبع في الإجابة على هذه الإشكاليات فهو المنهج التحليلي، مع الاستعانة بأداة الاستقراء لما كتبه النجار في هذا الموضوع.

أهداف البحث: ويهدف المقال لتبيين وشرح الأفكار التي يطرحها النجار في هذا الموضوع، وإبراز النظرة العقدية للمسألة البيئية، ولبلورة حلول تطبيقية لمباشرة الكون وحسن الانتفاع به، وصيانته والرفق به من خلال الرؤى التي قدّمها؛ مستعينين بما كتبه في هذا الباب وأهمه كتابه المعنون بقضايا البيئة من منظور إسلامي، وكتابه فقه التحضر ضمن سلسلة الشهود الحضاري.

الدراسات السابقة: أما الدراسات السابقة فلم نجد إلا مقالا واحدا - حسب اطلاعنا- قريبا من موضوع بحثنا وهو: المسألة البيئية في منظور الفكر الإسلامي "محاولة في رسم معالم المشكلة وعلاجها عند عبد المجيد النجار" لهجيرة شلبي، لكننا في دراستنا هذه ركزنا أكثر على إبراز الجانب العقدي في وصف قضية البيئة من حيث ماهيتها وقيمتها، ومباشرة الإنسان لها، ومعالجة مشاكلها.

خطة البحث:

أولا: الأساس العقدي لعلاقة الإنسان بالكون

ثانيا: ارتفاق الكون والرفق به:

الخاتمة: وفيها أبرز النتائج والتوصيات.

أولا: الأساس العقدي لعلاقة الإنسان بالكون

إن المتأمل في تاريخ الأمة الإسلامية يتبين له يقينا أن الانقلاب النوعي في حياتهم، والثورة الحضارية السريعة التي حققوها، ما كانت لتكون لولا دافعية عقدية نابعة من التوجيه القرآني والنبوي، فحققوا بذلك نقلة نوعية في ثقافتهم من بدو رحل لا يتفاعلون مع الكون من حولهم إلا بما يضمن قوتهم وحياتهم إلى رائدي حضارة بلغت الأصقاع في مدة قياسية.

وهذا التصور العقدي لعلاقة الإنسان بالكون كوّن في الثقافة الإسلامية قواعد للتعامل معه، وعليه جاءت التعاليم الإسلامية مبينة ومفصلة لهذه العلاقة من الناحية المبدئية العقدية، ومن الناحية الإجرائية في التعامل اليومي، وقد كانت هذه التعاليم مؤسسة على ما يحقق الغرض الذي من أجله وجد الإنسان، وهو تحقيق الخلافة في الأرض، لأن تصرف الإنسان يخضع لتصوره العقدي له إحجاما عنه أو انزواء أو اقترابا منه[1]؛ وهنا يشير النجار إلى أن التعامل اليومي للإنسان مع الطبيعة في سبيل تسديد احتياجاته وإن بدا لنا تعاملا تلقائيا، إلا أنه مندرج في حقيقته في إطار أيديولوجي كلي، يتحرك من خلاله الإنسان في كل معاملاته الجزئية الفرعية التي يصنع بها تحضره على الأرض، لأنه يرى أن البعد العقدي في تصور الإنسان للكون هو المسيّر لتصرفاته الحياتية إلى حد كبير؛ فهذا البعد العقدي للكون هو عنصر أساسي لتحقيق التحضر، لأن هذا الأخير ينشأ ويتطور أساسا من خلال هذا التصور المترسّخ في ذهن الإنسان الذي سيباشر البيئة الكونية، وهذا التصور كذلك هو الذي سيرسم منحنى التحضر وصبغته بعد ذلك.

وذلك لأنّ الصّورة التي يحملها الإنسان عن الكون من منظوره العقدي من حيث مأتاه ومصيره وطبيعته وتركيبه، ومن حيث قيمته وعلاقة الإنسان به، هي التي ستكون البوصلة المحددة لطريقة تعامله مع البيئة من حوله؛ ويبين النجار أن هذا الموقف العملي الذي سينتج عن هذا التصور العقدي سيكون متباينا، فكل إنسان سيباشر بيئته انطلاقا من تصوره حولها، فإما التحاما واقتحاما لمناكب الكون الفسيح، وإما ابتعادا عنه وانكماشا عن السعي فيه، وإما استعلاء وتسخيرا له أو تخوفا وتذللا له[2]، وما يبين لنا عقدية هذه المسألة هو كلام الله عز وجل في كتابه العزيز تصريحا في بعض المواطن وتلميحا في أخرى عن ضرورة مباشرة الكون وعن كيفية تلك المباشرة وضوابطها، كقوله تعالى في سورة الجاثية: ﴿إِنَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ (3) وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَابَّةٍ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ (4) وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (5)﴾ (الجاثية)، وعلى هذه الآية يعلق النجار قائلا: "فهذه المشاهد البيئية إنّما عرضت في كمّها وكيفها عرضا يجمع في تقرير حقيقتها بين ظاهرها المادي وبين بعدها العقدي، المتمثل في شهادتها على وجود الله ووحدانيته"[3] فالكون إذن شاهد على ألوهية الله تعالى ووحدانيته، وإيقاننا بهذه الفكرة يوطّد لنا هذا الأساس العقدي لعلاقة الإنسان بالكون.

ومن لا يحترم هذه الأسس والتوجيهات سيكون في زمرة المفسدين في الأرض لقوله تعالى: ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ ۖ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ (القصص: 77).

ولم تخل التوجيهات النبوية كذلك من هذه الإشارات التي تربط بين العقيدة أو الإيمان والحفاظ على الكون والبيئة، كقول رَسُولُ اللهِ ﷺ: «الْإِيمَانُ بِضْعٌ وَسَبْعُونَ - أَوْ بِضْعٌ وَسِتُّونَ - شُعْبَةً، فَأَفْضَلُهَا قَوْلُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَدْنَاهَا إِمَاطَةُ الْأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ، وَالْحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنَ الْإِيمَانِ»[3]، ونجد أن رسول الله ﷺ في حديثه هذا جعل إماطة الأذى عن الطريق، والذي هو من حسن الرفق بالكون من شعب الإيمان أي من

أبوابه، وهذا حثّ صريح وقوي لضرورة الحفاظ على البيئة، واقتران الإيمان بالله مع إماطة الأذى عن الطريق إشارة نبوية بليغة في التأكيد على ضرورة ارتفاق الكون، والعمل على إعماره، بل ونجده ﷺ في حديث آخر يحث حثا أقوى حيث يقول: "إِنْ قَامَتِ السَّاعَةُ وَفِي يَدِ أَحَدِكُمْ فَسِيلَةٌ فَإِنِ اسْتَطَاعَ أَنْ لَا تَقُومَ حَتَّى يَغْرِسَهَا فَلْيَفْعَلْ"[4]، فقد أُمر الإنسان بالإعمار، حتى لو تيقن بأنه لن يستفيد من ذلك، وهذا أمر شرعي يدل على فرضية المبادرة وفعل الخير والتعمير في الأرض حتى مع انتفاء المنافع، أي أن الحفاظ على الكون و الإعمار في الأرض مطلب شرعي مقصود لذاته.

هذه النصوص الشرعية التي قد يستغرب المتتبع لها من كثرتها، هي التي ولّدت في العقل الإسلامي الربط العقدي بين الإنسان والكون الذي يحيا فيه، نتج عنه تصوّر سليم يدفع بني آدم لسبر أغوار هذا الكون الفسيح والسعي في مناكبه، تحصيلا للخير بالطرق التي تحافظ عليه كونه من مخلوقات الله ومن نعمه علينا، بعكس الثقافات الأخرى التي نجدها مناقضة لهذا التصور، والتي ترى البيئة من منظور مادي بحت، لا يتراءى فيه بعد روحي عقدي ذو شأن، واعتبر أحيانا وجودا غير مغن في البحث عن الوجود الغيبي والتوصيل إليه، بل وتعتبره بعضها العائق دون ذلك.

وأغلب الثقافات القديمة تبنت فكرة الفصل بين روحية الإنسان ومادية البيئة، وأن الكون ليس إلا وسيلة مادية يسعى الإنسان للانتفاع بها بأكبر قدر ممكن؛ وهو ما قامت عليه المادية الحديثة التي جعلت الإنسان مدار الكون، وأحلت له كل شيء لتحقيق رغباته؛ وما هذه الأزمات البيئية إلا نتاج ذلك الاستغلال الأناني من الإنسان لمدخرات الكوكب، ورغبته الجامحة في التحكم فيه والاستيلاء التام عليه؛ وتصور الآخر للبيئة كان كذلك نتاج ثقافته حول بيئته والتي اكتسبها عبر الأجيال فنجد التوراة والإنجيل ينحيان منحى معاكسا تماما لما جاء به القرآن، فالرّوح العامة في اليهودية والمسيحية لا تنحو منحى الاعتبار العقدي للبيئة كما جاء به القرآن بل إن فيها من الأقوال والمواقف ما يدل على عكس ذلك، ويستشهد النجار لهذه النظرية بما ورد في العهد القديم: "فحزن الرب أنه عمل الإنسان في الأرض، وتأسف في قلبه، فقال الرب: أمحو على وجه الأرض الإنسان الذي خلقته، الإنسان مع بهائم ودبابات وطيور السماء، لأني حزنت أني عملتهم"[5].

وهذه الأقوال المحرفة الواردة في كتبهم المقدسة هي التي صنعت تلك الثقافة المشكلة لنظرتهم للطبيعة والبيئة والكون، نظرة لا تقدير فيها و لا استعظام للنعمة التي وهبها الله لهم، بل يرونها نقمة عليهم، ولذلك نسمع كثيرا بتلك العبارات القاسية كغضب الطبيعة، وغزو الفضاء، وقهر الطبيعة وامتلاك العالم، وما إلى ذلك من التعبيرات الموحية بالقسوة والأنانية، نتيجة النظرة الاستعلائية للإنسان على بيئته، وكذلك أشارت الثقافات اليونانية والغنوصية الشرقية القديمة بأن الرفعة للإنسان، وأنّ أصل المادة البيئية هو الخسّة والدونية في مقابل الموجودات الرّوحية السّامية، وهذه المادة ما هي إلا سجن للإنسان الذي حل بهذا الجسد ونزل لهذه الأرض من عالم الملكوت الخفي؛ وهذا التصور الاستنقاصي للكون هو ما ولد في عصرنا ما تقوم عليه الفلسفة الاقتصادية الحديثة وبالأخص فيما يعرف بقانون الندرة، الذي يعتبر مناف لماهية وجود الإنسان على الأرض واستخلافه فيها، فلا يعقل أن يوجدنا المولى عليها ويأمرنا بعمارتها، ثم لا يهيئ لنا الأسباب اللازمة لهذه المهمة.

أما الثقافة اليونانية المشهورة فقد نزعت في البحث عن حقائق الغيب منزع التجاوز للمظاهر البيئية المحسوسة، إلى التعقل المجرد إذ لا ترى فيها غنى في البحث عن الغيب، باعتبارها لا تحمل دلالات حقيقة حوله، لأن الإله عندهم علاقته واهية بالكون سواء فيما يتعلق بتدبير أمره أو العلم بما يجري فيه،

فليس إذن للبيئة في الثقافة اليونانية بعد عقدي يذكر[6]؛ أما في الفلسفة الحديثة التي أرسى معالمها ديكارت، فيرى النجار أنها تقوم على التفكير الذاتي متمثلا في كوجيتو ديكارت الشهير: "أنا أفكر إذن أنا موجود"[7]، فالمشاهد البيئية عندهم لا تغني شيئا في معرفة الله، وهذا المنهج الديكارتي المستبعد لأي بعد عقدي للمشاهد البيئية هو الموجّه للفلسفة الحديثة كلها[8].

أما الثقافة الإسلامية فهي متميزة وفريدة في نظرتها للكون، و تقديرها للوجود البيئي، بما تقرره النصوص الشرعية الإسلامية من قرآن وسنّة من بعد عقدي يتراءى فيه معنى روحي، يستشعره الإنسان للوصول للعالم الغيبي معرفيا ووجدانيا، وهو ما سيكون له التأثير البالغ في سلوك الإنسان أثناء مباشرته لهذا الكون، ساعيا

للإعمار فيه محققا لماهية وجوده وهي الخلافة والاستعمار في الأرض، وهذا ما يلاحظه كل دارس للتاريخ الإسلامي، فالخطاب القرآني الموجّه للثقافة الإسلامية شحذ همم أسلافنا للمضيّ قدما في اكتشاف نواميس هذا الكون، و إعمار الأرض موطن الخلافة كما أمر المولى سبحانه، لا كما تفعل المدنية الهمجية الحديثة، ولا ما تبثه بعض الخطابات الإسلامية الداعية للزهد في الدنيا والترفع عن كل ما هو أرضي.

ولا يمكن فهم قواعد التحضر الإسلامي إلا بالوقوف على الصورة العقدية للعلاقة التي صورها الإسلام بين الإنسان والكون؛ فالإنسان هو عنصر كوني على مستوى الخلق والحركة لممارسة الحياة، والكون هو منبته ومجال حياته[9]؛ ولذلك فإن التعاليم الإسلامية بينت الصلة بين الكون والإنسان ومنزلته فيه أوضح بيان، خاصة ما تضافر في القرآن من عديد الآيات التي توجّه الله فيها بخطابات حول الكون ومقدراته ومخلوقاته التي سخرها عز وجل لنا كخلفاء له في أرضه، وقد قسم النجار صلة الإنسان بالكون إلى نقاط ثلاث:

1- الوحدة والتوافق بين الإنسان والكون:

إن التماثل الرهيب الموجود بين خلقة الإنسان وباقي المخلوقات الأخرى لتدلنا تلقائيا على وحدانية الخالق، والدلائل على ذلك مبثوثة في مخلوقات الله الكثيرة بدءا من الذرة وانتهاء بالمجرة، وقد أفاض علماء التوحيد في بيان هذه الأمور وجعلها من الأدلة العقدية على الوحدانية، ويبين لنا القرآن الكريم هذا في عديد الآيات بأساليب مختلفة وعلى مستويات متعددة، مبرزا أوجه التشابه ومظاهر الوحدة في المأتى والمصير والسيرورة، بحيث يتحصّل لنا من ذلك كله تصوّر أن الإنسان ما هو إلا عنصر من عناصر هذا الكون، ولو فُضّل عليها وكُرّم من الذات الإلهية.

وقد قسم عبد المجيد النجار مظاهر هذه الوحدة والتوافق بين الإنسان والكون للنقاط الآتية:

أ- **التوافق الوجودي:** فالإنسان والكون ينتميان كلاهما إلى نفس الإطار الوجودي، وهو الموجود المخلوق في مقابل الوجود الخالق[10]، أي أنّهما من مخلوقات الله تعالى الدّالة على وحدانيته بكل تفاصيلها المبثوثة فيها، لأنّ الوجود وجودان خالق وهو المولى عز وجل، ومخلوق وهو الكون بأكمله والإنسان عنصر من عناصره.

وهذا التوافق الوجودي قد قسّمه النّجار إلى بضع عناصر تبيينا منه وتفصيلا لمعناه، فالتوافق الوجودي عنده يشمل:

التوافق في المأتى: فكل من الإنسان والكون ناشئ من العدم يقول تعالى: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا﴾ (الفرقان: 2)، القرآن يوضح لنا أنّ الإنسان ما هو إلا عنصر من هذا الكون الذي حوله، تتجلى فيه جملة من المظاهر التي خلقها الله في انتظام وتناسق، ويوجد العديد من الآيات التي تشير إلى ذات المعنى

تصريحا أو تلميحا كقوله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ﴾ (الروم:20)، وقوله تعالى في آية أخرى: ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ وَأَنْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ ۖ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ﴾ (الأعراف:185)، ويوجد العديد من الآيات الأخرى التي تتعاضد في معناها وتوضح لنا نفس المقصود.

فتناسق الكون الذي تنخرط فيه عناصره من أعلاها إلى أدناها تركيبا وتناسبا وضعيا، لأكبر شاهد على هذه الوحدانية[11]، لأن وحدة الأسلوب في كتاب الله المنظور تدل على وحدة المنشئ، تماما كما تدل وحدة الأسلوب في كتاب الله المقروء على وحدانية القائل عزّ وجلّ، وتوافق الكتابين ووحدتهما لأكبر دليل على وحدة الخالق.

التوافق في المصير: وإذا كان الكون والإنسان كلاهما يتفقان في وحدة المنشئ، فلابدّ أن يتّفقا كذلك في وحدة المصير، وتكمن هذه الوحدة في الرّجوع إلى الله تعالى، فكل الكون بكل مخلوقاته رجوعهم إلى الله في الأخير، واستدل النجار هنا بقوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَىٰ نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ ۚ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم ۖ بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ ۚ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ (18)﴾ (المائدة)، والآية الأشهر في هذا المقام هو قوله تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ (26) وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالإِكْرَامِ (27)﴾(الرحمن).

ب- التوافق التركيبي: يقول النجار: "وفيما بين هذا المبدأ وهذا المصير يشترك الإنسان والكون في عناصر التكوين، فليس الإنسان على ما يبدو من مفارقته للجمادات إلا ناشئا مثلها من تراب: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ۚ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِن بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا ۚ وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾ (الحج: 5)، وهو يشترك مع جميع الدّواب في عنصر الخلق وهو الماء ﴿وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِّن مَّاءٍ ۖ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ بَطْنِهِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ أَرْبَعٍ ۚ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (النور: 45)"[12].

فمن مظاهر التوافق التركيبي بين الإنسان والكون تكونهما من الماء والتراب، بالإضافة لخضوعهما جميعا لقهر القانون الإلهي، الذي يلهج بالخضوع له كل مفردات الوجود بلسان حالها، كما يصوّره قوله تعالى: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ (الإسراء: 44)، ومن أمثلة ذلك الخضوع انتظام الموجودات الكونية جميعا بما فيها الإنسان في قانون الحركة والتغيير، الذي لا يملك مخلوق إلا الانخراط فيه، فالعالم كله من الذرة إلى المجرة في حركة دائبة وتغير مستمر، وهو المفضي إلى الهلاك العاجل أو الآجل، وهذا ما يذكرنا بقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَن تَزُولَا ۚ وَلَئِن زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّن بَعْدِهِ ۚ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ (فاطر: 49).

وتنتهي هذه المعاني المصوّرة للتوافق بين الإنسان والكون إلى تقرير الاعتقاد بأن الإنسان ليس إلا جزءا كونيا يجري عليه ما يجري على كل المخلوقات، وليس بينهم من التناقض من شيء بل هم مشمولون بدورة التكامل الوجودي التي يعطي فيها كل عنصر ويأخذ بما يفضي إلى وضع قانون من التوازن والانسجام الكوني[13].

وللمشتغلين بمسائل الإعجاز العلمي في القرآن شروح واسعة حول التوافق بين المخلوقات، ومنها التوافق التركيبي العجيب بين خلية الإنسان والكرة الأرضية، وبين الذرة والمجوعة الشمسية، والحركة المتشابهة لإلكترونات الذرة حول النواة، والكواكب حول الشمس مع حركة طواف المسلمين حول البيت العتيق، فكل ما في الكون تحكمه قوانين كثيرة الكل خاضع لها.

2- رفعة الإنسان:

وهذه ثاني نقطة عبر بها النجار عن الأساس العقدي لعلاقة الإنسان بالكون، ويقصد برفعة الإنسان أنّه بالرغم من توافق الإنسان مع الكون من حيث النشأة والمصير والتركيب، إلّا أنّ هذا لا يعني التساوي القيمي بين الطرفين، بل على العكس من ذلك جاءت العقيدة الإسلامية تقرر أن الإنسان متميز عن الكون في الميزان القيمي تميز رفعة واستعلاء، فيقول النجار موضّحا: "إن مظاهر الوحدة بين الإنسان والكون لا تنطوي على دلالة معيارية تؤدي إلى التساوي في القيم بينهما، بل هي مجّرد دالة على الاشتراك في جزء من الحقيقة يبقى معها مجال كبير لتمايز الإنسان عن الكون تمايز رفعة واستعلاء[14].

وهذه المعاني نجدها مبثوثة في كتاب ربنا الكريم في عدة مواقع، فالله تعالى يقول: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ (الإسراء: 70)، وقصة سيدنا آدم مع الملائكة وإبليس لأكبر دليل على تكريم الله تعالى للإنسان، فقد نالت الملائكة الرضا بتنفيذها لأمر المولى القاضي بالسجود لآدم، وإبليس اللعنة والطرد من رحمة الله بإعراضه عن هذا الأمر وتصديه له تكبرا واستعلاء منه على آدم.

ويكمن الاختلاف بين الكون والإنسان عند النجار في قطبين مهمين ألا وهما:

- القطبية التكوينية: فتكوين الإنسان وإن كان متحدا مع الكون في الجانب المادي فإنه يفضله بضمّه للروح مع المادة، فقد جمع في ذاته الصغيرة ما تفّرق من العناصر في موجودات الكون الكثيرة.
- القطبية المعرفية: وهذا ما خصّ به الإنسان وحده من بين كل الكائنات، فقد تميز باستيعاب معرفي مهيئ بوسائله الإدراكية حتى ينقل العالم الخارجي في صورته الكمية والكيفية إلى عالمه الداخلي وتحصل له بالتالي القوامة[15].

3- تسخير الكون للإنسان:

بالرغم من التوافق العجيب بين الإنسان والكون ووحدتهما في التكوين والتركيب، والكيفية والنظام السّببي بل والمآل كذلك، إلّا أنّ الله عّز وجلّ جعل هذا الكون مسخّرا للإنسان تمام التّسخير، ودعاه للانتفاع به ومنع الإفساد فيه حتى يتسنى للغير كذلك الانتفاع، وهذه حقيقة عقدية ناتجة عن سابقتها وهي الاستعلاء البشري عن الكون، فالله هيّأ هذا العالم ليكون مسخرا لاستقبال الإنسان وسخّر موجوداته لخدمته تسخيرا، فحدد الأبعاد والقوانين والأحجام بما يتلاءم والمهمة التي وجد الإنسان من أجلها وهي الخلافة، وما يستجيب لقدرته من التعامل العمراني مع الطبيعة تعاملا إيجابيا فعالا[16]، وهذا التسخير الكوني شمل عدة أمور جعلها الله كي تخدم الإنسان فيحقق بالتالي الغاية من وجوده، ويعزو النجار ذلك لأربعة أمور خلقها الله في الكون لهذا السبب وهي:

تسخير الوجود: فقد خلق الله الكون تماما بما يتناسب مع الكيان الإنساني ابتداء، وكأنما خُلق أساسا لاستقباله وصنع لغاية وجوده، ويستدّل بقوله تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾ (إبراهيم: 33) فلولا خلق الله لهذه المخلوقات العظيمة لاستحال الوجود البشري على الكوكب.

التسخير لاستمرار الحياة: فكما ذلّل الله تعالى قوانين الكون لاستقبال الإنسان فقد سخّرها كذلك لاستمرار وحفظ الوجود الإنساني، واستدل بقوله تعالى: ﴿يُنبِتُ لَكُم بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (النحل: 11)، فلولا خلق الله لما يقيم الإنسان به صلبه من ماء وغذاء ما استمر وجوده.

تسخير يحقّق إمكانية تنقل الإنسان في أرجاء الكون الفسيحة: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطًا (19) لِّتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا﴾ (نوح: 20) فلو لم يتنقل الإنسان في البر والبحر لما استطاع أن يكون الخليفة في الأرض.

التسخير للاستيعاب المعرفي: فقد خلق الله الكون وجعل له قوانين ثابتة في التركيب والحركة تحكمه ﴿مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ﴾ (الملك: 3)، وهذا من أعظم دلائل التسخير الكونية فلو لم يكن في هذا الكون نواميس ثابتة وقوانين محكمة، لما استطاع العقل أن يرصدها ويدركها حتى يستطيع الإعمار والاستثمار مستندا إليها[17]، وهذا الاستيعاب المعرفي المتأتي بتسخير الكون بقهره لنظام ثابت هو الأساس في حياة الإنسان من حيث سعيه الخلافي، فالخلافة لا تقوم في جانبيها الروحي والمادي إلا بهذا الاستيعاب المعرفي الذي يمكن من معرفة الله وعمارة الأرض[18]، فخضوع الكون لجملة السنن الإلهية المبثوثة فيه، هو ما سهّل على الإنسان معرفة نواميسه، حتى يتسنى له التعامل معها والاستفادة من مدخرات الكون العظيمة المسخرة له، ولو انتفت هذه السنن لاختل ميزان مباشرة الكون، ولصعب على الإنسان التعامل معه حينها، ولكنه خلق الله أحسن كل شيء خلقه.

ثانيا: ارتفاق الكون والرفق به

بعد أن تتضح رؤية الإنسان للكون من حوله ويدرك علاقاته به، وكيف أنه سخر من أجله، وبعد أن يتحقق معان الوحدة مع الكون مع الرفعة التي خصه الله بها، إذ سخر الكون لأجله لا بد أن تكون لهذه الفكرة العقدية المغروسة في النفس آثارا فعلية تدفع الإنسان لمباشرة هذا الكون، وهنا يأتي الأمر الشرعي الآخر في علاقة الإنسان بالكون، والذي أسماه النجار "الارتفاق الكوني" و يعدّ شرطا أساسيا لهذه المباشرة التي ستنتج تلقائيا إذا ما استوعب الإنسان حقيقة علاقته بالكون[19].

1- مفهوم الارتفاق الكوني:

يشير لفظ الارتفاق في مدلوله اللغوي إلى معنيين أساسيين، و هذان المعنيان هما اللذان يحكمان علاقة الإنسان بالكون في التصور الإسلامي، وجرت عليه في الواقع مباشرة المسلمين للكون في بناء حضارتهم، أما أولهما فهو الرفق الذي هو اللطف بالشيء وهو ضد العنف، وأما الثاني فهو الانتفاع والاستعانة؛ وإلى هذين المعنيين تتراجع كثير من القواعد الجزئية في فقه التحضر الإسلامي في العلاقة بالكون، وقد جعل النجار عبارة "ارتفاق الكون" كترجمة عامة لفقه التحضر الإسلامي في التعامل الكوني، كون تحقيق التحضر الإسلامي مشروط بتحقيق الارتفاق الكوني والتفقه في أمر تحقيق الحضارة لا يكون إلا باستحضار معاني الارتفاق الكوني.

ونجد ذات المعنى حاضرا عند النجار في اصطلاح آخر أطلق عليه "ارتفاق البيئة" بحيث جعله عنوانا للتصور الإسلامي في خصوص السلوك العملي للتعامل البيئي، ذلك لأن مفهوم الارتفاق يجمع بين معنى النفع والرفق وهما العنصران الأساسيين في علاقة الإنسان ببيئته، يقول النجار موضحا: "وإذا كانت تلك الصورة العملية للتعامل البيئي تنتظم من عناصر متعددة، فإنها تعود في معرض تعددها إلى

عنصرين أساسيين يتعلق الأول بمباشرة البيئة لاستنفاع مقدراتها الكيفية والكمية، ويتعلق الثاني بمباشرة البيئة برفق يكون فيه حفظ لها من الخلل وصيانة لها من الفساد"[20].

وقد اختار النجار لفظ الارتفاق للتعبير عن مراده في تقريب وتوضيح التصور الإسلامي الصحيح حول الكون أو البيئة، استنادا إلى المعنى اللغوي لمادة الارتفاق بحيث يجمع معنى النفع ومعنى الرفق في آن واحد.

وبالرجوع إلى معاجم اللغة نجد من معان الارتفاق: الانتفاع، وارتفق بالشيء: انتفع به[21]، وفي القاموس المحيط الرفق: ما استعين به واللطف[22]، وفي تاج العروس أورد لفظ ارتفق في مادة ر ف ق ارتفق: ترفق به والرفق: ما استعين به وحسن الانقياد لما يؤدي إلى الجميل والرفق اللطف ضد العنف[23]، وعليه فقد وُفِّق النجار لاختيار لفظ من بطون المعاجم اللغوية يشير به تماما إلى المراد تبيينه في علاقة الإنسان بالكون، تصحيحا للمسار الحضاري واستنهاضا للعقيدة الكونية في الأنفس والعقول من خلال محوري الانتفاع والرفق.

2- محاور الارتفاق الكوني :

وتشمل محاور الارتفاق الكوني كما حددها النجار كلا من الرفق بالكون والاستنفاع به.

أ- محور الرفق بالكون:

مفهوم الرفق بالكون عند النجار: ويقصد النجار بلفظ الرفق بالكون التعامل مع الكون تعاملا صحيحا يقوم على الحفاظ على مقدراته ونظمه و موجوداته والحيلولة دون إتلافه، وأن تكون مباشرته لهذه البيئة قائمة على الاحترام والإكرام وذلك بالحفاظ عليها في تراكيبها ونظمها التي أحكمت لنفع الإنسان وصيانتها عن أي تعرض للتحريف أو الإتلاف[24] وكذلك بالاستهلاك العقلاني، وبهذا يحمل الرفق بالكون دلالة المعاملة الحضارية الإنسانية الراقية إزاء مقدرات الكون، باستغلالها والاستثمار فيها، لكن بشكل معقول يحقق الغاية المنشودة لتحقيق التحضر دون إفراط ولا تفريط.

ولا يتحقق هذا المدلول إلا كنتيجة للنسق العقائدي لصلة الإنسان بالكون، فمن شأن الإيمان بوحدة الإنسان والكون أن ينشئ في النفس الشعور بالقرابة مع الكون والوفاق معه، وهو المناخ الضروري لانطلاق القدرات الإنسانية وإقبالها على الكون لتباشره بالفعل والاستثمار.

ومن ثم يؤصل النجار لفقه الرفق بالكون تأصيلا عقديا من باب ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب، يشير النجار هنا إلى أمر غاية في الأهمية، فإذا كانت الخلافة وهي أساس الوجود الإنساني لا تتم إلا من خلال التصرف في هذا الكون بالرفق به، فسيصبح الرفق واجبا شرعيا لأنه شرط من شروط الاستخلاف، لأنه إذا آل الأمر إلى العبث بالإفساد فلن تتحقق مهمة الخلافة، ويعضّد قوله باستدلال قرآني وهو قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعۡجِبُكَ قَوۡلُهُۥ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيُشۡهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلۡبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلۡخِصَامِ (204) وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ لِيُفۡسِدَ فِيهَا وَيُهۡلِكَ ٱلۡحَرۡثَ وَٱلنَّسۡلَۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلۡفَسَادَ (205)﴾ (البقرة)، فالله تعالى في هذه الآية جعل الإفساد الذي هو ضد الرفق من مظاهر النّفاق لأن هذه الآيات من سورة البقرة نزلت تحكي عن صفات المنافقين في المدينة، وبالتالي فإنّ الرفق بالأرض من مظاهر وآثار الإيمان الحقّ، لأنه لا يعقل أن يجتمع الإيمان مع الإفساد في الأرض، وهذا تأصيل عقدي لفقه الرفق.

وأضاف إلى هذا التأصيل العقدي تأصيلا أخلاقيا لفقه الرفق، تمثل في التقرير الديني لأواصر القربى بين الإنسان والكون، كما سبق بيانه في نقطة الوحدة بين الكون والإنسان، فهذه العلاقة الودية المتصفة بالوحدة بين الطرفين لا بد أن تنتج سلوكا وديا من قبل الإنسان نحو الطبيعة، وذلك كان أسلوب النبي ﷺ التربوي في تحبيب البيئة لأتباعه[25]، وتأسّس بناء على هذين الأصلين العقدي والأخلاقي الفقه

الإسلامي في التعامل مع الكون بالرفق، ومنهما تشكلت أبعاده ومعانيه، فهو يعني التصرف الراقي من الإنسان إزاء الطبيعة في سعيه الحضاري، كما يعني الاستهلاك الواعي الرشيد في سبيل البناء الحضاري، وعليه يمكن شرح الرفق بالبيئة الكونية من خلال أمرين اثنين:

الرفق الصيانـي: كما أسلفنا القول فإن من ثمار العقيدة الصحيحة الرفق بالأرض، وما خلق الله لنا عليها من مقدرات سخرت لنا، ومن علامات النفاق الإفساد فيها، وقد صور لنا القرآن ذلك تصويرا مغلّظا يوحي بخطورة الأمر وعظمته عند الله تعالى؛ لذا كان لزاما على المسلم صيانة هذه المقدرات والحفاظ عليها.

وقد بني الفقه الإسلامي في التحضر على مبدأ صارم في صيانة البيئة الكونية، والحفاظ عليها في عناصرها ونظامها كما قدرها الله تعالى، ومنع أي تصرف من شأنه أن يعود بالخلل على المسار الطبيعي لها، ويكون ذلك على ضربين:

- **صيانة للكون من التلف**: وهذه الصيانة تسعى لتحقيق التوازن البيئي، والله تعالى يقول في محكم التنزيل: ﴿وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ﴾ (الحجر: 19)، فالبيئة أقيمت على التوازن الإلهي الذي خلقها الله عليه، لكن التدخل الإنساني غير العقلاني هو ما أفسده، ولم يعرف العالم خطورة ذلك إلا بعد أن اختل هذا التوازن وبدت مظاهره للعيان، وبعدها فقط انتبهت الأمم لضرورة حماية البيئة، وصارت اليوم جل الدول والمنظمات تعمل جاهدة على تحقيق التوازن البيئي والحفاظ على مدخراتها، بتسخير الجهود الكثيفة والأموال الطائلة.

لكن التعاليم الإسلامية من قبل قد غلّظت النهي في شأن الإفساد و المفسدين، وشدّدت على ضرورة السعي الرشيد في الكون، وجاء فيها توجيهات بالمنع القاطع لأي تصرف من شأنه إتلاف التوازن البيئي، وتتضافر في ذلك الأدلة من القرآن والحديث، بل وحث على ذلك حتى في حالات الحرب كذلك وليس فقط في الحياة العادية، فقد سنّ رسول الله ﷺ قانونا للتعامل مع البيئة إذا ما غزا أو بعث سرية، و سار على ذلك الخلفاء و المسلمين الأول من بعده، فليس هناك ما يبرر الإفساد في الأرض؛ ولا يخال هذا النهي إلا لغرض الصيانة البيئية من التلف القارض من جهة والحيلولة دون انقراضها بالظروف الخارجة عن الإنسان من جهة أخرى، وهذا كله مما قنّنته الشريعة الإسلامية لمنع إتلاف البيئة إتلافا عبثيا[26].

- **الرفق بالصيانة من التلوث**: ولا يكون إهلاك البيئة فقط بانقراض مخلوقاتها، أو إتلاف عناصرها وحسب بل بتلويثها كذلك؛ فإن الإفساد فيها بإلقاء كل ما من شأنه تعطيل العناصر البيئية في ذاتها أو كيفياتها عن أن تؤدي دورها النفعي، وباستقراء التوجيهات القرآنية والنبوية والتطبيقات العملية السابقة للحضارة الإسلامية في مختلف أطوارها يتبين لنا تركيز الفقه الإسلامي التحضري على مسألة محاربة التلوث، المسألة التي صارت تشغل الرأي العام والخاص حديثا، ومن أهم ما يميز الدين الإسلامي أن شعائره لا تقوم إلا بشرط طهارة الجسم والثوب والمكان وقد أولى الفقه الإسلامي اهتماما عظيما بهذا الشأن، وفصل الفقهاء فيه تفصيلا دقيقا و لم يغفل حتى جزئية صغيرة، و المسلم لا يكون إلا طاهرا في ذاته وفي كسوته وفي المكان الذي يوجد به، بل وقد جعل الإسلام إماطة الأذى من الطريق من شعب الإيمان ولهذا عدّ النجار مسألة الحفاظ على البيئة مسألة عقدية.
- **الرفق الاستهلاكي**: ومن ضروب الإفساد في الأرض الاستهلاك الغير عقلاني لمقدرات البيئة بحيث يفضي إلى إهلاكها وتعطيلها عن وظائفها، فالله تعالى خلق الكون بتوازن يضمن للإنسان العيش فيها وتحقيق وظيفته الخلافية توازنا اطراديا بين حاجته وبين مستوى التطور الذي بلغه، وهذا ما يفضي إلى

التوازن البيئي؛ وبناء على هذا فإذا كانت مرافق الكون قد خلقت من أجله فإن المطلوب منه أن ينتفع بها، في حدود ما يلبي حاجاته الحقيقية في الانتفاع دون أن يتصرف إزاءها تصرفا استهلاكيا يزيد عن حاجاته، فإذا هو مسرف فيها بما يفضي إلى إرهاقها والتعجيل بانضباطها وهذا من التعدي الكبير على البيئة[27]، والإسلام أكثر ما يكره الإسراف والمسرفين، فهذا التقنين الاستهلاكي لمقدرات البيئة يعد من صميم الفقه الإسلامي في التعامل مع نعم الله كلها المخلوقة لتلبية احتياجاتنا، وهو ما صار ينادي به أدعياء الحفاظ على البيئة ببرامج التنمية المستدامة والمشاريع الصديقة للبيئة.

ب- محور الانتفاع بالكون: يعتبر النجار الانتفاع بالكون ثاني معاني الارتفاق به، بحيث تكون العقيدة في الكون عند الإنسان المسلم إذا ما آمن بها إيمانا حقيقيا قوة دافعة نحو الانتفاع، وهذا النسق في الدافعية إلى الانتفاع بالكون هو الذي أحدث في نفوس المسلمين الأوائل ثورة في علاقتهم به، فإذا هم ينتقلون من البداوة إلى الحضارة الفاتحة للأمصار في ظرف زمني وجيز.

والمقصود عنده من عبارة ارتفاق الانتفاع هو السعي الإنساني الإرادي المكتسب الذي يبدله في الانتفاع بالكون، فيما فوق السعي الفطري لحفظ الحياة، وذلك لإقامة التحضر والمضي فيه درجات تطول أو تقصر، ولكنها تتجاوز الاستجابة الفطرية لسدّ ضرورات البقاء[28]، أي أنّ الارتفاق الذي يقصد النجار هو الانتفاع والاستفادة من الكون استفادة تحقق البناء الحضاري، وليس مجرد سدّ متطلبات الحياة من غذاء وماء ومأوى، وهذا الانتفاع لا يكون إلا بعد تحقق تلك الصورة العقدية الإسلامية في الأنفس والعقول، والتي تشكل المحرك الدافع لهذا الانتفاع المرجوّ لتدوير حركة الإنتاج والإعمار في الأرض.

ويتم الانتفاع بالكون من خلال نوعين اثنين هما الانتفاع الروحي والانتفاع المادي، ويندرج تحت كل قسم منهما عدة أنواع أوردها النجار في كتبه وهي كالتالي:

- **الانتفاع الروحي**: المقصود بالروح هو ما يقابل الجسم المادي في الإنسان، فالعنصر الروحي تعود إليه جملة من القوى والملكات، مثل العواطف والمشاعر والحواس الباطنية والمدارك العقلية، وكل ما يعود إلى هذه العناصر بخير يدخل ضمن الانتفاع الروحي، وذلك في مقابل الانتفاع المادي، مع التسليم بأن العلاقة بين الروح والجسد علاقة وثيقة مما يجعل الانتفاع الحاصل لأحدهما حاصلا للثاني[29].

ومن ضمن أنواع الانتفاع الروحي:

- **الانتفاع المعرفي** لأن معرفة الحقيقة كمال روحاني، والكون هو المجلّي الأكبر للمعرفة التي تنفع الإنسان والتي يتوقف عليها نموّ حياته، وهو ما نجد الحثّ على استكشافه والتأمل فيه مبثوثا في مواضع عديدة في القرآن الكريم؛ بل ويرقى التوجيه القرآني لمباشرة الكون بالانتفاع المعرفي إلى أن أصبح يمثل نظرية متكاملة في المعرفة، تقوم على اعتبار الواقع المادي للكون منفذا ضروريا للمعرفة، ويعتبر النجار الوقوف على الدلالة العقدية للكون انتفاعا روحيا عظيما، لأن الإنسان إذا ما امتدت روحه إلى البعد الغيبي من وراء المادة الكونية أشبعت بحسب طبيعتها بمعرفة ذلك الغيب، فيتحقق بذلك التوازن الإنساني في علاقته بالكون[30].
- **الانتفاع الجمالي**: ويتمثل في التوجيه القرآني للانتفاع بجمال الكون، فكما وُجه الإنسان للانتفاع المعرفي -كما أسلفنا- وأمر بترقية ملكاته العقلية من خلال المعرفة، وُجّه كذلك للانتفاع الجمالي بالكون، من خلال تغذية ملكة الإحساس الذوق الراقي والإحساس بالجمال، ويتم ذلك بالتأمل في الكون والتمتع بزينته؛ وهذا التوجيه القرآني إلى السلوك في البيئة سلوكا يستنفع آيات الجمال فيها، يقترن على نفس الصعيد بذلك السلوك الذي يستنفع آيات الله المادية، فكأنما وجوب السعي للاستنفاع بالكون يشمل

أيضا الاستنفاع الجمالي[31]، ولعلّ ما يؤكد ذلك قوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ ۚ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ (الأعراف: 32).

- **الانتفاع المادي بالكون:** إذا كان الانتفاع الروحي بالكون هو الإطار المنظم للتحضر، فإن الانتفاع المادي هو الشّرط المحرك له، والمقصود به هو استثمار ما في الكون بمظاهره المختلفة، من مرافق عنصرية وكيفية وتوجيهها لما فيه مصلحة الإنسان، وكل ما من شأنه أن ييسر له الحياة، وليس السعي في الكون لاستثماره أمرا نافلة بل هو واجب ديني، يندرج ضمن مهمّة الإنسان الخلافية، لأن الخلافة لا تتحقّق إلا بالتعمير المادي الذي يقضي باستثمار مرافق الكون، وهو ما بينه قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ ۖ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾ (الملك: 15).

وإذا ثبت في مبادئ التحضر الإسلامي وجوب الإقبال على الكون لتحقيق الانتفاع المادي، فإنه قد وضع لذلك قواعد من شأنها أن تحافظ عليه بالكيفية التي يحقّق بها غرضه[32]، ومن هذه القواعد التي سنّها فقه التحضر أنه وضع لذلك تأطيرا عقديا، وذلك بأن تندرج كل المساعي في الانتفاع بالكون ضمن إطار عقدي؛ وكذلك قاعدة تقنين الانتفاع، والمقصود به ممارسة الانتفاع المادي من خلال القوانين التي بني عليها في طبيعته المادية، فالكون كله مركب على قوانين ثابتة، ولا تكون تلك المعالجة مثمرة إلا إذا كانت معالجة من خلال القوانين التي بنيت عليها في مادتها وكيفيتها، وهذا التقنين في الاستنفاع البيئي الذي وجهت إليه التعاليم الإسلامية، يفضي من جهة إلى الحصول على المنافع البيئية بيسر، ويفضي من جهة أخرى إلى الحفاظ على البيئة من حيث نظامها وتوازنها[33]؛ فإذا ما أُطّرت عملية مباشرة الإنسان للبيئة والكون من حوله تأطيرا عقديا، بحيث يتشكل له في وعيه وإدراكه ومن ثم عمله يقين بأن هذه العملية تنمّ عن عقيدة تبين طبيعة علاقته بكونه، وأن استنفاعه بالأرض التي هو عليها عبادة ككل العبادات التي أمر بها، ووجه توجيها إلهيا لكيفية القيام بها، حيث وضعت قوانين لهذا الاستنفاع حتى لا يكون عشوائيا مضرا ومخلا بتوازنها، ونظمت داخل أطر معينة وسنن ثابتة لا بد للإنسان من استكشافها والتقيد بها، حينها فقط يُحصّل الانتفاع التام من بيئته، والمقرون بفقه الارتفاق الذي يضمن للكون توازنه، ويورث الأرض وما فيها للأجيال القادمة سليمة غنية بما أودعه الله فيها من خيرات تكفي كل البشر.

الخاتمة: وحاصل الكلام بعد هذا المقال نلخصه في الآتي:

النتائج: بعد هذا الطرح الملخّص لأفكار النجار فيما يخص سؤال الارتفاق الكوني والبيئي من المنظور العقدي، نتوصل إلى النتائج التالية:

1- تتميز العلاقة بين الإنسان والكون بالوحدة والتوافق، ولكن برفعة خصّ بها الإنسان وحده لأنه المكلف بمهمة الخلافة.

2- سخر الله الكون للإنسان وأمره بمباشرته وفق ما تمليه عليه العقيدة الإسلامية وفقه التحضر الإسلامي.

3- ارتفاق الكون والبيئة يعني مباشرتهما بالاستنفاع والرفق في آن واحد.

4- الرفق بالكون يكون من خلال صيانته من التلف والتلوث واستهلاكه استهلاكا مرشدا.

5- يتم الاستنفاع بالكون روحيا كما ينتفع به ماديا.

6- إن للفكرة العقدية دافعية قوية للانتفاع بالكون وحسن مباشرته وفق مقتضى العقيدة الإسلامية.

7- التصور العقدي الإسلامي كوّن في الضمير المسلم قواعد للتعامل مع الكون، تقوم على الرفق و كذا الاستنفاع المقنن.

التوصيات: أما عن آفاق هذا البحث التي أراها والتوصيات التي بدت لي في ختام هذه الورقات البحثية فهي:

1- لا بدّ أن تكون هناك مستقبلا دراسات علمية رصينة تهتم بالمجال البيئي، ويقوم بها مختصون في علم البيئة مع مفكرين إسلاميين، بحيث يقدمون للعالم المنهجية الإسلامية المستقاة من الوحيين قرآنا وسنة في التعامل مع البيئة استنفاعا وارتفاقا بها.

2- تشكيل هيئات إسلامية تعمل في المجال البيئي، حتى تنشر رسالة الإسلام الراقية في الحفاظ على كوكب الأرض، الذي بات يعاني من الاستغلال المادي العشوائي له، وحتى تعلّم الجميع قواعد التعامل مع الكون من خلال فقه التحضر الإسلامي، الذي يوجه الإنسان للانتفاع بما وهبه الله وسخر له في هذا الكون الفسيح، مع تقنين هذا الانتفاع واشتراط الرفق فيه.

3- لا بد من إدراج مبحث ارتفاق البيئة ضمن الدراسات التجديدية في علم العقيدة، امتثالا لما ورد في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ.

الهوامش:

[1]- النجار،عبد المجيد، الشهود الحضاري للأمة الإسلامية - فقه التحضر الإسلامي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، 1999، ص 127.

[2]- النجار، عبد المجيد، الشهود الحضاري للأمة الإسلامية - فقه التحضر-، ص 126.

[3]- أخرجه مسلم، الصحيح، كتاب الإيمان، باب شعب الإيمان، 35/57.

[4]- أخرجه الألباني، السلسلة الصحيحة، صحيح على شرط مسلم، ص 9.

[5]- العهد القديم، سفر التكوين، الإصحاح 6، 6-7.

[6]- النجار، عبد المجيد، قضايا البيئة من منظور إسلامي، مركز الدراسات والبحوث العلمية، قطر، 1999، ص 104.

[7]- روني ديكارت، مقال عن المنهج، ترجمة محمد محمود الخضري، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر، القاهرة، مصر، ط2، 1968، ص149.

[8]- النجار، عبد المجيد، قضايا البيئة من منظور إسلامي، ص 105.

[9]- النجار، عبد المجيد، قضايا البيئة من منظور إسلامي، ص 105.

[10]- النجار، عبد المجيد، خلافة الإنسان بين الوحي والعقل، دار الغرب الإسلامي، 1987، ص 57.

[11]- النجار، عبد المجيد، خلافة الإنسان بين الوحي والعقل، ص 46.

[12]- النجار، عبد المجيد، خلافة الإنسان بين الوحي والعقل، ص 46.

[13]- النجار، عبد المجيد، الشهود الحضاري للأمة الإسلامية - فقه التحضر الإسلامي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، 1999، ص 128.

[14]- النجار، عبد المجيد، خلافة الإنسان بين الوحي والعقل، دار الغرب الإسلامي، 1987، ص 56.

[15]- النجار، عبد المجيد، الشهود الحضري للأمة الإسلامية - فقه التحضر الإسلامي-، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، 1999، ص 130.

[16]- النجار، عبد المجيد، خلافة الإنسان بين الوحي والعقل، ص 58.

[17]- المصدر نفسه، ص58.

[18]- النجار، عبد المجيد، قيمة الإنسان، دار الزيتونة للنشر، الرباط، المملكة المغربية، 1996، ص 79.

[19]- النجار، عبد المجيد، الشهود الحضاري للأمة الإسلامية - فقه التحضر، ص 127.

[20]- النجار، عبد المجيد، قضايا البيئة من منظور إسلامي، مركز الدراسات والبحوث العلمية، قطر، 1999، ص 218.

[21]- الركبي، بطال، النظم المستعذب في تفسير غريب ألفاظ المهذب، المكتبة الشاملة، ص 273.

[22]- أبادي، الفيروز، القاموس المحيط، المكتبة الشاملة، ص 887.

[23]- الزبيدي، مرتضى، تاج العروس من جواهر القاموس، المكتبة الشاملة، ص 346.
[24]- شلبي، هجيرة، فلسفة التحضر عند عبد المجيد النجار، جامعة الأمير عبد القادر، أطروحة دكتوراه، 2017-2018، ص116.
[25]- النجار، عبد المجيد، الشهود الحضاري للأمة الإسلامية - فقه التحضر الإسلامي-، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، 1999، ص 157.
[26]- النجار، عبد المجيد، قضايا البيئة من منظور إسلامي، مركز الدراسات والبحوث العلمية، قطر، 1999، ص 267.
[27]- النجار، عبد المجيد، الشهود الحضاري للأمة الإسلامية - فقه التحضر-، ص 165.
[28]- النجار، عبد المجيد، الشهود الحضاري للأمة الإسلامية - فقه التحضر-، ص 132.
[29]- شلبي، جامعة الأمير عبد القادر، أطروحة دكتوراه، 2017-2018، ص 110.
[30]- النجار، عبد المجيد، الشهود الحضاري للأمة الإسلامية - فقه التحضر-، ص 144.
[31]- النجار، عبد المجيد، قضايا البيئة من منظور إسلامي، مركز الدراسات والبحوث العلمية، قطر، 1999، ص 229.
[32]- النجار، عبد المجيد، الشهود الحضاري للأمة الإسلامية - فقه التحضر-، ص 151.
[33]- النجار، عبد المجيد، قضايا البيئة من منظور إسلامي، مركز الدراسات والبحوث العلمية، قطر، 1999، ص 249.